BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

منتدى الحوار

Dialogue Forum

(DF)

الدور الفعَّــال للدراسات الكلاسيكية

صلاح فضل:

في هذه الليلة السكندرية الخاصة التي تحمل كل سمات الإسكندرية الجميلة حيث يهطل الليل مطرًا وترتعش الأرض بالعواطف الجميلة بردًا ويهجم الشتاء فيثير الهمة ويحفزها بدلا من أن يطفئها. أحسب أن هذا المنتدى على وجه التحديد يزداد توهجًا وقيمة وتألقًا وأهمية حين يشرفه شيخ علماء الإسكندرية أستاذنا الجميل العظيم الأستاذ الدكتور مصطفى العبادي. وأحسب أنه عندما يختار لحواره معنا هذه الليلة أن يتحدث عن الدراسات الكلاسيكية فهو يختار عصارة خبرته الطويلة الخصبة وخلاصة معايشته الحميمة الصادقة لتخصص يبدو للوهلة الأولى كأنه غريب عن مصر مع أنه جوهر ثقافة مصر وهو الذي جعل منها قبلة العالم وعاصمته الفكرية إبان الفترة التي كانت الإسكندرية فيها ليست عروس البحر المتوسط فحسب، بل عروس المعمورة المعروفة حينئذ.

ومازلت أذكر مثلا الحماس الجميل المضيء لأستاذ هذا الجيل ومؤسس كراسي الدراسات الكلاسيكية في الجامعات المصرية الدكتور طه حسين وهو يتكلم عن مستقبل الثقافة العربية ويدافع ضد ضيق الأفق وقصر النظر، ضد عدم الوعي الذي يتصور أننا في بلد عربي إسلامي لا حاجة لنا فيه إلى الدراسات الكلاسيكية. كان لا يدافع عن نموذج آخر غربي أو أوروبي بل نموذج عربي صميم، فالحضارة العربية نفسها لم تعرف دورها ولا فلكها و لم تنطلق لأداء رسالتها إلا عندما اشتبكت بالثقافة الإغريقية القديمة، وعندما لعبت دور الوسيط الحضاري بين هذه الثقافة القديمة التي كانت قد أوشكت على الاندثار وبعثتها وشرحتها ولقنتها لعصر النهضة الذي لم يعرف أرسطو ولا أفلاطون إلا بتلخيصات ابن سينا وعروض ابن رشد بمستوياته المختلفة الملخَصة والمطوَّلة، بمعني أن أندر صفحات الحضارة العربية الإسلامية لم تتجلَ إلا عبر تبنيها ومشاركتها الفعالة في إطار الثقافة الكلاسيكية وبذلك ضمن العرب دورًا حضاريًّا لهم في التاريخ وفي فلك العلوم المختلفة، وإن كان ذلك موقف العرب بصورة عامة، فإن موقف مصر أشد خصوصية كما سيشرح لنا ويعلمنا ويمتعنا الأخ الكبير والصديق العالم الدكتور مصطفى العبادي.

مصطفى العبادي:

كاد الدكتور صلاح فضل في أثناء تقديمي أن يلم بفكري، وبالموضوع الذي أعددته ليكون كلامي أشبه بتفصيل لما أجمل هو في البداية. أولا أنا سعيد بالجمهور الذي تمكن من الحضور في هذا الطقس المطير الذي غالبا ما يفضل خلاله المرء القراءة أو مشاهدة التلفاز، وأذكر بيت شعر يصف هذا الوضع:

تعيرنا بأنا قليل عددا فقلت لها إن الكرام قليل

ربما لا يعرف الجيل الجديد أن الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي قد شغل في الجامعة منصب مدرس التاريخ اليوناني، وكان يدرس للطلبة، ومن عاداته أن يحاضر وبصحبته خريطة مجسمة وهو يشرح المعارك الحربية والحركات البشرية، والطلبة ينظرون ويعجبون إذا ما كان هذا الشخص مبصرًا أم كفيفًا وهو يتتبع الخريطة والأحداث بدقة مذهلة.

كان حماس الدكتور طه حسين للدراسات الكلاسيكية اليونانية واللاتينية مشهودًا ومعروفًا وله مواقف، وحين دعا إلى إلزام طلبة الجامعة أو كليات الآداب على الأقل باللغة اللاتينية ثم اليونانية، فوجئ بأن البعض آنذاك في الجامعة المصرية – التي سميت بجامعة فؤاد ثم بجامعة القاهرة — يعارضونه، وكان ذلك في الثلاثينيات الأولى من القرن العشرين وكان الكثير من الأساتذة بالجامعة المصرية أوروبيين. وكان قد لاحظ أن الكثير من الأساتذة الأوروبيين يعارضونه في مجلس الكلية، وأن أحدهم كان اسمه بروفيسور كوبلاند وهو ذو علاقة طويلة ومتصلة بمصر، قد حضر إلى جامعة الإسكندرية حين كان اسمها جامعة فاروق الأول وكنت حينذاك لا أزال طالبا، ودرَّس لنا وكان عمره ٧٥ عاما ولكنه كان شعلة من الحيوية وعاش إلى قرب المائة عام، وكان كوبلاند من المعارضين للدكتور طه حسين، فسأله الدكتور طه حسين: "هل تعرف جامعة إنجليزية لها اعتبارها لا تفرض على تلاميذها أو تشترط معرفة باللغة اللاتينية أو اليونانية؟" فرد عليه بأن مصر ليست إنجلترا، ويذكر الدكتور طه حسين في كتاب "أديب": "وعند ذلك انقلبت الآية وعرفت أني سأنتصر لأنه جرح الشعور المصري".

إذن، ما هو المقصود بالدراسات الكلاسيكية ؟ إن المقصود بها في أوروبا والغرب عامة دراسة التراث اليوناني والروماني، هذا التراث بالنسبة لأوروبا يعتبر محوريًا في بناء الثقافة والمعرفة الأوروبية فكما ننـــزع نحن إلى تراثنا القديم ونعتز بتراثنا الفرعوني بالانتماء وكذلك تراثنا العربي والإسلامي، فالأوروبيون يعتزون بالتراث اليوناني والروماني لأنهم يعتبرونه جذر الحضارة والثقافة الأوروبية. وفى إحدى المناسبات منذ عدة سنوات، كان هناك مؤتمر في دلفي باليونان عن الدراسات الهيللينية والعربية، وكنت مشاركًا فيه، وكانت إحدى المشاركات أستاذة روسية من موسكو، وكما نفعل مع الأجانب بادرتها بالحديث بالإنجليزية فردت علي بلغة عربية سليمة، وعرَّفتني باسمها وقالت لي إنها مستشرقة، فعرفتها بنفسي وباسمي وبأن عملي يقابل عملها كمستشرقة وأنني مستغرِب لأنني أدرس التراث الأوروبي القديم، وأدركت هي الكلمة ودلالتها على الغرب والاستغراب في آن واحد. ومادام هذا هو تخصصي، فأرجو ألا يظن أحد أنني أبالغ في إعجابي بالتراث اليوناني واللاتيني، ولكنني حقيقة مقتنع به كل الاقتناع، وبشكل عام، أنا أحترم كل إنسان يقتنع بعمله، فلابد أن

يؤمن الإنسان بأن العمل الذي يؤديه يمثل قيمة. وأذكر مؤتمرًا في عمان بالأردن حيث كان بعض المتكلمين يهاجمون المستشرقين، ونحن نألف هذا الموقف واتهام المستشرقين غالبا بأن آراءهم سياسية ومغرضة، وكانت إحدى المستشرقات الإنجليز قد فُوضت لإلقاء كلمة ختامية، وقالت إنه لا ينبغي أن يظن أحد أننا وهبنا حياتنا لدراسة اللغة أو الآثار أو التاريخ العربي بهدف إفساده، وأن من يفعل ذلك إنسان ملتوٍ يهب نفسه لشيء بغرض إفساده، لكننا قد نخطئ، وإن أخطأنا نصوب خطأنا مثل أي عالم.

والسؤال هو لماذا أحرص على الاهتمام بالتراث الكلاسيكي في مصر؟ إن السبب الأول هو أن مصر في تجربتها التاريخية الطويلة تعددت جوانب ثقافتها ولغتها ودينها، فالمجتمع المصري لديه تجربة معقدة طويلة، فأثناء العصر القديم المسمى بالفرعوني، كانت هناك لغة مصرية قديمة لها أساليب محددة في الكتابة معروفة كالهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية، وكانت للشعب المصري القديم ثقافته وإبداعاته، وكانت للدولة صلاتها بالبيئات المتجاورة، وتعرضت مصر كغيرها لاحتلال أجنبي سواء من الشرق من بلاد الرافدين كالآشوريين والبابليين والفرس، أو من الغرب من اليونان والرومان، وهذه الاتصالات البشرية زادت الموقف تعقيدا دينيًا وثقافيًا على امتداد المنطقة بأكملها. وبعد ذلك كانت المرحلة المسيحية، فتركنا ديانة تعدد الآلهة وتوجهنا للوحدانية نحن وغيرنا، وكان ذلك في الفترة اليونانية والرومانية التي سادت فيها المسيحية. ثم جاءت الفتوح العربية وتغير الموقف لغةً وديناً. إذن، فتجاربنا متعددة، والمرحلة اليونانية والرومانية تكاد تمتد حتى ألف سنة وقد تزيد، فالتراث اليوناني والروماني جزء من تكويننا ومن تكوين ثقافتنا وحضارتنا، فلا يمكن أن نُسقط ألف عام من تاريخنا لأنها فترة تسيد فيها علينا عنصر آخر، ومن الممكن أن نقول إن العرب أيضا قد جاءوا من الخارج وفرضوا علينا لغتهم ودينهم، لكنه أمر يحدث في بلاد العالم أجمع. والمواقف العاطفية لا تجدي شيئا، فالمعرفة يجب أن تكون عقلانية أو علمانية، فإن شئنا أن نعرف أنفسنا، فعلينا أن نعرفها كما هي، أي كما نحن بتعقيداتنا، ولا نستطيع أن نهمل جانبًا من تكويننا لأن هذا العنصر لابد وأن يتضح يومًا:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

ومن الجهل أن يظن الإنسان أنه يستطيع أن يخفي شيئًا وهذه الفترة اليونانية الرومانية من التجربة المصرية رائعة ومشرقة ونشبهها بتجربة أخرى لبلد آخر في الغرب هي إسبانيا، فالتجربة العربية الإسلامية تجربة مشرقة ورائعة ولها إسهام في حركة الحضارة الإنسانية بشكل عام، وهذه الفترة اليونانية والرومانية رغم أن الحكام فيها لم يكونوا مصريين، إلا أن البناء الحضاري للثقافة شهد تفاعلاً، فالتفاعل أساسا من طبيعة التحضر. وفي نهاية القرن التاسع عشر، انتشرت دعوى بين المؤرخين في أوروبا ودارسي الحضارات الإنسانية تقول إن الشعوب درجات، فالكثير من الشعوب أسهم في بناء الحضارة الإنسانية كمصر والعراق وفارس والهند والصين واليونان والرومان، وأن أقل الشعوب إسهاما كانت الشعوب السوداء في وسط أفريقيا، ولذلك قام البعض بتقسيم الشعوب درجات اعتبروا فيها أن كل شعب بطبيعته محدود القدرة، إلا أن هذا الحد قد يختلف درجة أعلى أو أقل، وأعلى الأجناس جميعا هو الجنس الآري وتلك كانت دعوى ألمانية. وانهارت هذه النظرية التي تستهدف تقسيم مستويات الشعوب حين وُجد أنه بالذات في أمريكا ومع القرن العشرين كانت عناصر

ممن كان يُظن أنها في الدرك الأسفل من السوء اتصلت وتفاعلت وتعلمت وتفوقت وأصبح منها العلماء وظهرت نظرية جديدة هي أن أسوأ ما يصيب أي مجتمع، ويقضي على نزعته الإبداعية هي العزلة، وأن العناصر السوداء في أفريقيا لم تنتج حضارات كبرى بسبب العزلة القاتلة التي فرضتها الصحراء الكبرى التي لم تسمح بالاتصال البشري، وكانت الحفائر والكشوف الأثرية في أفريقيا والتي يجري البعض منها أستاذ فرنسي اسمه ليكليرك على مدى ٢٥ عامًا فتبين له أن الاتصال بين مصر والسودان منذ فجر التاريخ كان أيسر عن طريق البحر الأحمر لا النيل، وكلنا يعرف عن سلسلة الجنادل في النيل التي تجعل الملاحة مستحيلة عند النوبة، إن طريق الماء أسهل من طريق البر خاصة مع طول المسافة، والصحراء الكبرى مهلكة ولا تنتشر فيها الواحات والعيون كما يحدث بالقرب من الوادي أو حتى في الجزيرة العربية التي تمكنت من تيسير تجارة القوافل لوجود عيون المياه. والصحراء الكبرى حاجز فظيع، وفرضت عزلة بين الأفارقة وبين حوض البحر المتوسط، أما نحن فقد ساعدنا هذا البحر المتوسط، وكان شرقه بيئة خصبة سبقت الإنسانية في النهوض بسبب الاتصال الوثيق مع الحضارة في مصر.

إن الصلة بين مصر واليونان بدأت قبل الإسكندر الذي فتح مصر، وأسس عاصمة جديدة هي الإسكندرية، لكن نظرًا لأن الخطر الفارسي كان عدوًّا مشتركًا يهدد مصر واليونان، فقد زادت عناصر التقارب بين مصر واليونان لسبب سياسي واقتصادي مشترك بينهما، وذلك لأن لدى اليونان خامات احتاجت إليها مصر والعكس صحيح. وكانت مصر قديمًا دولة مصدِّرة للقمح، واشتهرت بإنتاجه وكان لديها الفائض من الطعام خاصة القمح وكذلك الكتان وورق البردي. ومن حسن الظروف ومهارة المصريين القدماء أن نما البردي بصورة طبيعية في مصر رغم أن الكتابة كانت ممكنة على خامات مختلفة كالجلود والحجر وكسر الفخار للكتابات القصيرة، لكن الكتابة المتصلة كان أكثر ما يصلح لها هو البردي الذي انفردت مصر بإنتاجه وهو ما كان مصدرًا للعملة الصعبة كما نقول اليوم، فقد كنا نبيع الورق لغيرنا وكان من السلع مرتفعة الثمن. ومن المصادفات ما نراه في مدينة ابيدافروس الشهيرة سياحيا باليونان والتي بها أكمل مسرح من حيث الصوتيات، فإذا وقف شخص على خشبة المسرح وآخر في أعلى نقطة في نهاية المسرح الذي يتسع لعشرين ألف متفرج، فإن صوت تمزيق ورقة عند الأول يُسمع بمنتهى الوضوح عند الثاني دليلا على حرفية انتشار الصوت. وقد اشتهرت هذه المدينة بمعبد اسكليبوس إله الشفاء والطب، وأثناء البناء كان أحد الكهنة يسجل نفقات العمل، ومن بينها سجل شراء أوراق البردي، وكان معدل سعر الورقة ٢ دراخما وذلك مبلغ كبير للغاية لأن الدراخما كانت فضية، وفجأة في سنة ٣٤٢ قبل الميلاد، أي حوالي عشر سنوات قبل مجيء الإسكندر إلى مصر، وفي عهد أبيه فيليب الذي كان يجمع المثقفين من أجل الترويج لدعوته إلى توحيد مدن اليونان، قفز السعر من ١ أو ٢ إلى عشر دراخمات لكل ورقة، ومن حسن الصدف أن أحد الفلاسفة واسمه سبيوسيباس كتب كتابًا إلى فيليب يناقش موضوع الوحدة والعلاقة بين أثينا واسبرطة وكورنثا والمدن اليونانية والخلافات بينها، وبعد أن كتب ثلاث صفحات، أنهى خطابه باعتذار لأن الورق قد ارتفع سعره بسبب احتلال الفرس لمصر، وعدم قدرته على شراء المزيد من الورق! ومن النادر أن تجد في نفس الوقت مثل

هذا الكتاب ثم سجل المصروفات الخاص ببناء المعبد، وهو ما يوضح كيف أن أزمة قد نشبت في السوق بسبب حدث سياسي، فقد كانت مصر غنية بالمنسوجات الكتانية والقمح والورق، أما اليونان فكانت بها الفضة غير الموجودة في مصر، وقد سك اليونان العملة لأول مرة، وكان اختراع العملة اختراعًا مذهلاً سهل التجارة وأوقف المقايضة بالقيمة مما جعل مصر في حاجة للفضة لتشتري ما تشاء، وكان الخشب والفضة وبعض مواد الترف كالخمور وزيت الزيتون اليوناني الشهير يُستورد من اليونان في مقابل سلع مصر الثلاث، أي أنه كانت هناك مصالح متبادلة قائمة كلها على التجارة، وكان الخشب من السلع الهامة، وكانت الشجرة الوحيدة ذات الأهمية هي شجرة الجميز والتي لم تعد اليوم موجودة.

كان هناك تقارب لظروف الاقتصاد والسياسة، وكان اليونانيون قد بدأوا الاتصال بالثقافة المصرية قبل مقدِم الإسكندر الأكبر، وكان عالم الفلك يودوكسوس من جزيرة كريدوس والذي جاء إلى مصر في زمن نكتانبو في الأسرة الثلاثين ليتعلم الفلك، وكانت سيرته باختصار موجودة في أحد مصادر الفلاسفة وتقول إنه كان في يده خطاب توصية وهو آت إلى مصر من ملك اسبرطة لتيسير مهمته للدراسة في مصر بجامعة أون (عين شمس)، وأثناء وجوده في مصر، ترجم كتابا في الفلك من المصرية إلى اليونانية، واشتهر في التراث الأوروبي بأنه أول من قام بعمل تقويم شمسي محكم، وظنوا أنه هو من اكتشفه، إلا أن الدراسات الحديثة أثبتت أن النظام الشمسي موجود في مصر منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وبدرجة عالية من الدقة، وكان الأوروبيون يحضرون إلى مصر لدراسته، ولذلك فإن معرفتنا بالتراث اليوناني ساعدت على معرفة إسهاماتنا الحضارية ومعرفة تراثنا.

ومن الاختراعات المصرية المهمة في الأسرة الثامنة عشرة أي ما بين عامي ١٦٠٠ إلى ١٥٠٠ قبل الميلاد، كان هناك مهندس مصري اسمه كاسم أحد الملوك أمنمحات، وقد عثر على مقبرته بوادي النبلاء بالأقصر، وكتب على جدار مقبرته أنه اكتشف الساعة المائية التي تقيس الزمن ليلا وقدمها هدية إلى الملك. فقد كان قياس الوقت صباحًا يتم بالساعة الشمسية، وهو أمر لا خلاف عليه، أما المشكلة فكانت في القياس ليلاً، فليس كل الناس ينامون ليلا، فهناك الحراسة والدوريات والطقوس الدينية وكلها تحدث ليلا، واستطاع هذا المهندس تصميم تلك الساعة التي تقيس الزمن ليلا، ويمكن أن نرى لها نموذجًا في متحف العلوم بمكتبة الإسكندرية. ومن المصادفات أنه في عام ١٩٠٢، عثر الأثري المشهور فلندرز بتري في الأقصر على الساعة التي ينطبق عليها الوصف الخاص بأمنمحات، فهي مثل إصيص الزرع مخروطية بصورة غير تامة بحيث يكون القطر العلوي ضعف القطر السفلي، فإذا كان هناك ١٢ إصبعًا أسفل فالأعلى ٢٤ إصبعًا على الطريقة المصرية القديمة، وكان ذلك اختراعًا مذهلاً وعمليًّا إذ كان يملأ الوعاء بالماء عند غروب الشمس، وكان أسفل الإناء ثقب مصفَّح بالذهب أو الأحجار الكريمة بحيث لا يضره الماء، وكان قطره ١,٤ عيار أقل من مللي ونصف ليسمح بسيلان الماء لأكثر أو أقل من ١٢ ساعة حسب الفصل. وهذه الساعة اختراع مصري انتشر في العالم كله، وذهب إلى الصين، وقام الكثيرون على تحسينه وكان لدى أفلاطون في أكاديميته ساعة تدق عند مشرق الشمس لتوقظ الطلبة، فقد كان البشر يستغلون النهار قدر الإمكان للتغلب على ضعف الإضاءة ليلا، فيبدأون يومهم بمجرد ظهور أول خيوط النهار. وقد حضر اليونان إلى مصر مع الإسكندر وأسسوا المكتبة القديمة

والموسيون وبدأوا يقومون بدراسات مذهلة وأحدثوا ثورة علمية وأسماؤهم مشهورة جدا مثل إقليدس الذي يُعتقد أنه ولد في الإسكندرية، وكان هناك تقني اسمه كتيسيبيوس وهو ابن أحد الحلاقين بالإسكندرية وولد بها وهو الذي أدخل التعديل على الساعة المائية لأنها كانت مخروطية الشكل، وكان سطحها مقسما إلى الساعات حسب الصيف والشتاء، وأدرك هو أن النظر داخلها ليلا صعب فنقل التخطيط الداخلي إلى أسطوانة في الهواء، وجعل وعاء الماء أسطوانيًّا بدلا من كونه مخروطيًّا، وكان يصب الماء فيها بقدر معين، وعليها عوامة طافية بها مؤشر يشير إلى اسطوانة أخرى بها الساعات مما سهل قراءة الوقت. وظلت هذه الساعة بعد تعديلها مستخدمة حتى العصور الوسطى، والدليل على ذلك بيت شعر كتبه أبو العلاء المعري قال فيه:

والساع آنية الزمان وما حوت لم يَبدُ إلا بعد كشف غطائها

إذن، كانت تلك أمثلة التفاعل بين اختراع مصري قديم وبين علماء الإسكندرية، وكيفية تعاملهم معه، فالحضارة تفاعل وأخذ وعطاء، ومن لم يتعلم لا يعمل. وهناك عبارة تقول "لا يهم من أين تأتي بمعلوماتك لكن الأهم هو ماذا تصنع بها"، خذ العلم ولو في الصين، لكن إذا أخذته فقط فأنت ناقل ولست بعالم ولا مجدد علم لكن إذا صنعت منه شيئًا جديدًا فأنت أحدثت علمًا وأضفت إضافة. وقد تعلم اليونانيون من المصريين ومن البابليين، وأبدعوا في الإسكندرية علمًا جديدا مذهلا فيجب أن نعرف كيف حدث هذا.

وقد وجدت بردية من العصر الروماني من القرن الثالث هي كتاب في تعلُّم صناعة الآلات ومنها صناعة الساعة المائية وثانيها كان عن جهاز آخر، إلا أن البردية مشوهة وتلك من مشكلات البردي، فأصبحت هذه البردية قصاصات غير ذات معنى متصل، ولكن ورد بها بعض عبارات دالة، فالآلة التي يتحدث عنها النص البسيوتريوم باللغة اليونانية، ومن حسن الحظ أن أفلاطون كان يعرفها وهو واحد ممن جاءوا إلى مصر وتعلموا فيها وكان يلفظها بتيوتريوم لأن حرفي السين والتاء يتبادلان في اللغة اليونانية، وقال عنها أنها آلة حجرية مستديرة يقيس بها كهنة مصر الزمن ويرصدون مشرق ومغرب النجوم والأفلاك بدقة عالية وذلك فقط وصفها ووظيفتها دون تفاصيل. فالنص يتعلق بالفلك، وأن الشمس تمر بموقع يسمى (فورور)، وتلك ليست كلمة يونانية ومن حسن الحظ أن كاتب النص شرح هذه الكلمة الأجنبية وقال إنها تعني أويكوس أي بيت وحور أي حورس، إذن، فالكلمة تحريف لكلمة مصرية هي "بـيــر حور" أي "بيت حورس" وهو ما يذكرنا بالآية الكريمة "والقمر قدرناه منازل" صدق الله العظيم. إذن، كلمة منــزل استخدمت في علم الفلك وأصلها مصري، فالشمس تتحرك في أبراج ولكل منها اسم، والمنازل للشمس وهنا "منــزل حور" فيما يخص حركة الشمس. ونعرف من هذا المثال أن تلك الكلمة (فورور) مصرية، وشرحها المترجم، وهذا النص يقدم صورة لترجمة العلوم المصرية لليونان بطريقة أشبه بمن يترجم اصطلاحًا أجنبيـــًّا كالتلفزيون أو التليفون فيبدأ في ترجمة معانيه الحرفية ليقدمها مبسطة للمتلقي.

ومن المعروف أن إبداعات الإسكندرية بصفة خاصة في العصر العباسي تمت ترجمتها، وكانت أساسًا لحركة النهضة العلمية العربية في المشرق العربي وكذلك في المغرب والأندلس، فنحن لن نتكلم عن أهمية

التراث اليوناني للعرب لأن العرب أنفسهم أقبلوا على ترجمة تراث اليونان إقبالاً مذهلاً كما أن أكبر حركة ترجمة حتى مطلع التاريخ الحديث كانت الحركة التي شهدها العصر العباسي والترجمات التي تمت في بغداد.

وبالنسبة إلى دراسة تاريخ مصر بالذات في العصر العربي، أقول إن كل من يعرف مصادر التاريخ الإسلامي يعرف أن أقدم الكتب التي وصلت إلينا لا ترجع إلى ما قبل نهاية القرن الثاني الهجري، لكنها تبدأ مع القرن الثالث بانتظام أي منذ بدء عصر العباسيين. وإلى أن سقط حكم بني أمية لدينا نقص شديد في المعلومات، ففي النصف الأول من القرن الأول الهجري، لا نجد مصادر معاصرة باستثناء نص القرآن الكريم، فليست هناك كتابة مباشرة من القرن الأول، وكانت حركة التاريخ الحديث خاصة العلمي تميل إلى الشك الشديد في كتابات المؤرخين، فإما أنه كان يجامل حاكمًا أو يهاجم حاكمًا آخر أو يتحمس لمذهب أو يعادي مذهبـــًا آخر أو يتحمس لطبقة أو لعقيدة، فمثل تلك العناصر تتدخل في كتابة التاريخ. ومنذ القرن التاسع عشر، ارتفعت صيحة مدوية بأن دراسة التاريخ من كتب التاريخ القديمة خاصة التي لم تعاصر الحدث لا تصلح سندا، وأنه لمعرفة التاريخ لابد من العودة إلى الوثائق. وهناك مؤرخ ألماني متميز هو ليوبولد فونرونكه قال "لا تاريخ بلا وثائق"، فإن لم تكن هناك وثائق فالتاريخ مزيف. والسؤال هو ماذا نفعل إذن في التاريخ القديم؟

من حسن الحظ أن احتفظت مصر بوثائق على ورق البردي، فالمصري القديم خلف ثروة من هذه الأوراق، وكان العصر اليوناني الروماني رائعا في قدرته على التسجيل والكتابة وحفظ الأعمال الإدارية خاصة وأن أوراق البردي القديمة كوثائق المواليد والوفيات والضرائب والعقود والسجلات والزواج كانت تودع كلها في سجلات الدولة، لكن بعد خمسين أو مائة سنة تتراكم فيبيعونها ليشتريها نوعان من الناس هم الحانوتية والذين كانوا يستخدمونها في التحنيط لأنها تمتص الرطوبة، والعلماء والدارسون لأن الورق كان غالي الثمن، والسجلات تكتب على جانب واحد، فكان الطلبة يشترون الورق المستعمل ويستخدمون الوجه الثاني للورقة من أجل الدرس والكتابة. ومن الكتب التي ترجمها الدكتور طه حسين كتاب اكتشف على بردية في البهنسا في مصر الوسطى، وكان هذا الكتاب لأرسطو عن دستور الأثينيين، وهذا الدستور عليه نص أرسطو، وعلى الوجه الثاني سجل الضرائب. والمفارقة أن الوجه الأملس هو الذي كتبت عليه الضرائب، أما الوجه غير المعتنى به فهو الذي كتب عليه نص أرسطو العظيم. وأقول إن مصر خلفت ثروة هائلة من هذه البرديات، وأقبل الغربيون في العصر الحديث على الاهتمام بالبرديات، وهذه الوثائق هي التي تيسر دراسة التاريخ وبمئات الآلاف وفى كل مناحي الحياة. ولأول مرة استطعنا أن نعرف تاريخ الإنسان العادي في أقصى قرية من قرى مصر، واستطعنا أن نعرف عن حياته وزواجه وأبنائه وتعاقداته وما باع وما اشترى وكلها مسجلة، إما محفوظة وإما مهملة ردمتها الرمال وإما في الأجسام المحنطة، وكان من ضمن ما فعله المصريون القدماء تقديس الحيوانات، فالتمساح مثلا حيوان مقدس في الفيوم ودعي "سبك". وكان هناك فريق يقوم بالحفر في أم البجوات — واسمها اليوناني تبتونس - وهي قرية بالفيوم وكانت بها مقبرة للتماسيح المقدسة، وكان على رأس هذا الفريق العالم الإنجليزي جرينفلند هانت ويصحبه آخرون، وقد وعدوا العمال بمكافأة لمن سيجد بردية، واستطاع أحد العمال أن يجد تمساحا فمن غضبه ضرب التمساح بآلة الحفر، ولدهشتهم وجدوا أن مومياء

التمساح مملوءة بلفافات البردي و لم يكن المكتشفون أنفسهم يعرفون بهذا الأمر فبدأوا في فك الأجسام المحنطة للتماسيح وأصبحت تلك مجموعة معروفة وشهيرة من البرديات تدعى مجموعة تبتونس ومنها مكتبة تبتونس الموجودة منذ القرن السادس قبل الميلاد إلى بداية العصر الميلادي في القرن الأول، ووجدنا في هذه المكتبة أعمالا أدبية رائعة منها أعمال شبيهة بقصص ألف ليلة وليلة.

وطيلة العصر اليوناني الروماني كانت اليونانية لغة رسمية أما الأهالي فكانوا يتكلمون ويكتبون المصرية، وهو ما أقرته المحاكم في تشريعها لتسهيل المعاملات بين اليونان والمصريين بصورة أشبه بما عرفناه في التاريخ الحديث باسم المحاكم المختلطة، ولكنها كانت لتنظيم القضاء بحيث إذا كان التعاقد مكتوبا باليونانية، كانت المحاكم اليونانية هي جهة الاختصاص في فض النـــزاع، بينما تختص بذلك المحاكم المصرية إذا ما كان مكتوبًا باللغة المصرية. ومهما يكن شخص المتعاقد، فقضيته تتبع اللغة المكتوب بها العقد لا جنسيته. وظلت ثنائية اللغة هذه ما بين رسمي وعام حتى أتى العرب إلى مصر، ووجدوا أن الجهاز الإداري المصري منتظم تمامًا فلم يغيروه، واستمرت الدواوين في الدولة العربية كما هو معروف في العراق والشرق باللغة الفارسية، أما في مصر والشام فكانت باللغة اليونانية في ظل القرن الأول بكامله من الهجرة، وبعد ذلك ابتدأ الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سياسة تعريب الدواوين في نهاية القرن الأول. وهذا العمل من أعظم الإنجازات التي قام بها عبد الملك ابن مروان، وأعتقد أن تلك المسألة لم تُدرس بعد حق دراستها. لكن، لم يكن ممكنًا أن تتغير الإدارة بين ليلة وضحاها، فهي عملية صعبة لأنه لابد من تعليم الناس اللغة العربية أولا لكي يتمكنوا من التدوين بها. وحتى عام ١٣٢ هجرية، أي إلى قرب نهاية الدول الأموية، وُجدت بردية من أخميم ثلاثية اللغة تحمل شكوى والنص الأصلي قبطي به حوالي ٨٠ سطرًا وله مختصران أحدهما يوناني والآخر عربي. ففي المائة سنة الأولى، كانت اليونانية رسمية ومستمرة وكانت هناك كمية كبيرة من البردي الذي استمر يستخدم إلى القرن العاشر الميلادي، وبدأنا نتعلم صناعة الورق من الصين حوالي سنة ٧٠٠م حسب الاعتقاد السائد إلا أن بعض الأوراق التي عثر عليها في دير سانت كاترين وترجع إلى عام ٧٠٠ ميلادية تقريبا تشير إلى وصول الورق إلى مصر قبل هذا التاريخ المفترض، وكان ذلك بالصدفة إثر انهيار أرضي كشف عن مخزن ورق.

فهذه الثروة من الوثائق البردية من بداية العصر العربي من القرنين الأولين تحديدًا لم تلق العناية الكافية بالبرديات اليونانية التي اهتم بها الرومان في العصر الروماني والمسيحي، أما العصر العربي الأول فلم يهتم بها، حتى كانت هناك جهود مثل البرديات التي نشرها كل من العالمين بيل ورومان، وهي برديات يونانية تعود للعصر العربي الأول، لكن لازالت هناك عشرات الآلاف من البرديات العربية واليونانية والقبطية التي لم ترها عين، ومن أشهر مجموعات البرديات في العالم تلك الموجودة في فيينا والتي تبلغ حوالي خمسين ألف بردية على أقل تقدير وسبعين ألف على الأكثر. ومديرة البردي في فيينا قالت إنه لو كانت تلك البرديات يونانية لما تركها الأوروبيون لكن البرديات العربية والقبطية لا تجد من يهتم بها. وأستطيع أن أضرب مثلا من تجربتي الشخصية حيث أجريت دراسة عن مالية مصر عند الفتح، والمشكلة إن الغربيين يهتمون للغاية بالنواحي الاقتصادية ونحن لا نهتم بها إلا قليلا، والمؤرخون العرب الأوائل مثل ابن عبد الحكم والبلاذُري والطبري يذكرون أرقامًا خيالية عن جبي الضرائب، وكان ابن عبد الحكم يقول ١٢ ألف ألف أي ١٢ مليون حيث

كانوا لا يعرفون المليون ولا يذكر الوحدة أو العملة أو التمييز، أما البلاذُري فكان يقول ألفي ألف، أما الطبري ففي وثيقة الصلح بين المقوقس وعمرو بن العاص يقول خمسين ألف ألف. وكان الغربيون يقولون إن العرب لا يفهمون ما يقولون، وأنا قابلت هذه المشكلة فقد كان البلاذُري هو الوحيد الذي يذكر الدينار والذي لم يكن قد صدر بعد، وإن صدر على معيار العملة الرومانية الذهبية سوليدوس، والسؤال هو من يقولون ١٢ مليون أو ٥٠ مليون ماذا يعنون؟ وكان باتلر والغربيون يقولون إن العملة المعترف بها هي الدينار الذهب، فلو بيعت مصر بكل ما فيها فلن تساوي خمسين مليون دينار ذهب حسب رأي الأخير، وبقراءة برديات الضرائب على الأرض وجدت أن تقدير الضريبة ليس بالدينار وإنما بالقيراط الذي ينقسم إلى أربعة وعشرين قيراطا، ومعدل ضريبة الفدان هو ستة قراريط، ووجدت في الوثائق البردية أن الحصيلة الكلية لمحافظة مثل البهنسا تجمع بالقراريط إلى أرقام فلكية ثم تحول إلى دنانير ثم إلى أرطال، وإذا زادت -وهي تزيد- تحوَّل إلى قناطير. ولم يكن القيراط ولا القنطار عملة، فالعملة هي الدينار وهو الوحدة النقدية، فالسبعين دينارًا يساوي رطلا والمائة رطل تساوي قنطارًا، ولو أخذنا كلمة قنطار وهي كلمة قرآنية، فسنجدها كلمة لاتينية الأصل واستخدمت بعد ذلك في اللغة اليونانية، والقنطار كلمة لاتينية الأصل (كنتيناريا) و(كنت) تساوي مائة. إذن، فإن (الكينتيناريا) تساوي المائة رطل. وأنا قلت إن الأرقام المليونية تلك أرقام قراريط، وإن قسمنا على ٢٤ أصبحت ١٢ تعادل الخمسمائة ألف فقط. ويقول ابن عبد الحكم في نص جميل للغاية واصفًا تقاليد مصر المالية إن المصريين كانوا يقسمون حصيلة جزيتهم أربعة أرباع؛ ربع لدار الخلافة وربع لنفقة الجند وربع لرعاية الأرض والإدارة وربع خيالي يُختزن تحت الأرض للنوائب والمصائب. إذن، نصف المليون ربع الاثنين مليون، وفي زمن معاوية ارتفعت من خمسمائة ألف إلى ستمائة ألف، ولأول مرة أمكن أن نصل إلى تقدير مالية مصر عند الفتح، وهذا التقدير اهتموا به للغاية في الخارج، وراثبون وهو أستاذ في جامعة لندن أعاد دراسة مالية مصر في العصر الروماني بناء على هذا التقدير. وفي الختام، أقول إن هذه اللغات أصبحت من صميم مصادر معرفتنا بحقيقة ماضينا.

صلاح فضل:

كنا جميعا مأخوذين مسحورين بطلاوة الحديث وجماله وتدفقه وظهر بجلاء المعلم الطلي الجميل الذي تتقطر معرفته وحكمته ويشعرنا بدفء وتلقائية ويعتصرها بشفافية بالغة.

ولي عند أستاذنا سؤالان خامراني وأنا أستمع إليه، ففي مطلع الحديث ذكر فكرة التسيد على مصر من بعض الشعوب التي غزتها وأنها لا ينبغي أن تحرمنا من تأمل التاريخ، ومن استخلاص المغزى الحقيقي له، وأن نحتمل الواقع التاريخي الذي يؤكد أنه كانت هناك شعوب سادت. وأعتقد أن فكرة تسيد الشعوب الأخرى على المصريين تحتمل النقاش وأنها ليست مسلَّمة. كذلك، أشار إلى أن عقائد المصريين في الفترة الفرعونية كانت تعددية وثنية، وهو يعرف أن التوحيد كان جزءًا أساسيًّا في عقيدة المصريين، وعندما قِبل المصريون الإسلام قبلوه استئناسا بعقيدة التوحيد المصرية، فلم يكن التوحيد جديدًا عليهم، والمسيحية

تكاد تكون صناعة مصرية أيضا حيث أسهمت فيها مصر إلى حد كبير، والشعوب التي غزت مصر كانت أشبه بالرومان عندما غزوا اليونان حيث غزوها عسكريًّا وخضعوا لها ثقافيًّا. والمسيحية في مصر تمصرت والإسلام في مصر تمصر، وكثيرًا من الثقافات التي غزتنا بقوة السلاح لم تلبث أن خضعت واصطبغت بالثقافة المصرية، ولذلك ليس من الدقيق أن نقول إن هذه الشعوب تسيدت على مصر، فقد تكون في الفترة الأولى للغزو احتلتها، لكن ألا يرى الدكتور مصطفى العبادي معي أنها لم تلبث أن خضعت لها واندمجت فيها وتمصرت في صلبها؟ إن مصر تمتلك خاصية غريبة للغاية وهي احتواء الأجنبي، وإدراجه في منظومتها والتسيـــد عليه فيما بعد، وهذا ما حدث في الفترة البيزنطية فعندما نقول إن فلانًا ولد في مصر يعني أنه ليس يونانيًّا، فمن ولدوا في مصر تصبح مصريتهم غالبة، تلك هي الفكرة الأولى التي وددت طرحها للنقاش. أما الفكرة الثانية فقد كفيتني عبء طرحها، وتتصل بالسؤال عن إلى أي حد استقر في وعي الدكتور مصطفى العبادي بعد هذا العمر الخصب في البحث والدراسة أن الحضارة اليونانية تدين في جوهر منجزاتها للحضارة المصرية. والحقيقة أنك قد طرحت فكرة أجمل من فكرة الدين، وهي فكرة التفاعل الحضاري وهي أشد صلابة من الفكرة التي يطرحها المؤرخون غالبا عن الخضوع للتأثير والتأثر . لكن السؤال الأخير الذي ظل يلح عليّ طيلة سماعي للمحاضرة هو أنني لم أجد إشارة إليه إلا في كلمتك الأخيرة: كنت سأقول لك ما هي علاقة الدراسات الكلاسيكية بالمستقبل؟ ألا يمكن أن يكون الاشتغال بالدراسات الكلاسيكية إغراقا في الماضوية وإدارة الظهر للمستقبل؟ لكن، عندما أشرت إلى الثروة العظيمة من المعرفة ومن التاريخ التي ما تزال تحتاج إلى اكتشاف المستقبل لكي نعرف تاريخنا بدقة وبجد علمي وأن على شبابنا أن يفعل ذلك، أدركت أن الدراسات الكلاسيكية تمثل أفقا للمستقبل لا يقل أهمية عن إضاءتها للماضي.

عفت بدر (أستاذ الوراثة بكلية الزراعة جامعة الإسكندرية):

أتفق تماما مع الدكتور مصطفى العبادي أنه لا يمكن لشعب أو لفرد أن يخفي شيئا حتى على المستوى العام، إلا أن الشعوب تميل بطبيعتها البشرية إلى التقليل من شأن حقبة اعتقدت أن شعبًا آخر تسيد عليهم فيها، وينطبق هذا على مصر إلى حد ما في الحقبة اليونانية الرومانية. ومن زياراتي لإسبانيا وجدت أن حقبة الحكم العربي للأندلس حقبة يتم هناك التركيز على التقليل من شأنها على الرغم من الآثار الرائعة التي تركها العرب والتي تُعد الآن مصدر سياحة كبير لإسبانيا.

وبخصوص مسألة تقسيم الشعوب إلى درجات، أقول إن هذه المسألة وإن كانت موجودة في القرن التاسع عشر، إلا أنني وبحكم تخصصي في الوراثة أنها استمرت إلى القرن العشرين لدرجة أن بعض علماء الوراثة مثل مايكل كون وهو عالم معروف نشر أن الشعوب السوداء أقل قدرة ذهنية من الشعوب الآرية ويدلل على ذلك بحجج عديدة منها الـــIQ، وهذا المقياس صُمم للشعوب الأوروبية والأمريكية بناء على تدريبهم، ولكنه لم يُصمم على تدريب الشعوب السوداء وكانت النتيجة أن ظهر السود أقل قدرة ذهنية من البيض.

كمال إسحاق (مهندس استشاري):

سمعنا في المحاضرة أن أسوأ ما يصيب الشعوب هو العزلة أو عدم الاتصال وكان المثال هو عزلة الشعوب السوداء خلف الصحراء الكبرى، وأتساءل لماذا نحن في هذا العصر نغلق على أنفسنا فكريًّا وثقافيًّا وحضاريًّا عن الاتصال بحضارة الآخرين، علاوة على أننا لا نستطيع قبول الآخر بأفكاره عن الديمقراطية والحرية، وليست لدينا قدرة على أن نتحاور دون أن نتشاجر أو نسفك دماء بعضنا البعض.

أيضا، ذكر الدكتور مصطفى العبادي أنه لا تاريخ بلا وثائق، إلا أننا لا نستطيع أن نهمل عنصرًا مهمًّا في تكويننا نتعمد فيها إلى حذف فترة تاريخية هامة من تاريخ مصر وهي الفترة القبطية المسيحية على الرغم من أن هذه الفترة مليئة بالوثائق وبالآثار، وأبسط مثال أذكره إنه في دير سانت كاترين انهار جزء من الأرض ووُجدت أسفله كمية هائلة من البرديات.

محمود بكري:

هناك مدرسة تدعي أن التاريخ انتهى، وأنه لابد أن نبدأ من الآن في اتجاه المستقبل في تدوين التاريخ، وهناك أستاذ أمريكي من أصل إيراني اسمه لطفي زاده، يؤمن بمدرسة محو الماضي وأن مسألة تعلم التاريخ مسألة كلاسيكية وانتهت. المسألة الثانية حول إشكالية المصطلح، يُقال دومًا عصر ما قبل التاريخ وأعتقد أن المقصود هو ما قبل التأريخ وليس التاريخ، وما الفرق بين التاريخ والتأريخ والتاريخانية والتتريخ؟

عباس عبد الحليم يحيى (أستاذ ورئيس قسم الهندسة المعمارية بالأكاديمية البحرية):

في دراسات الأكاديمية البحرية، نضع الفترة الكلاسيكية الإغريقية الرومانية في مرتبة عالية جدًّا، لدرجة أنها تعتبر المرجع بالنسبة لنا على الرغم من أن الدكتور مصطفى العبادي ألقى الضوء على فترات تاريخية هامة أيضا مثل الفترة الفرعونية والإسلامية، لكن من الممكن أن يكون ذلك نتاجًا غربيًّا لأنني أعتقد أن ما خدم الفترة الكلاسيكية هو عصر النهضة، فعندما بزغ عصر النهضة اعتبر أن الفترة الكلاسيكية هي الأساس، وأن كل ما حدث بعد ذلك عصور مظلمة سادت فيها الخرافات، وهنا أتساءل هل لدينا الحق في أن نضع الفترة الكلاسيكية في مكانة عالية جدًّا لدرجة أننا عندما نصف أي شيء أنه كلاسيكي تعني فورًا أنه ذو قيمة خالدة وجيدة ومتميزة.

وحول موضوع المستشرقين أقول إننا دائما ننظر إلى المستشرقين بنظرة تشككية، وأعتقد أن هذه النظرة بها شيء من الظلم للمستشرقين، فقد قرأت مؤخرًا لمستشرقين مثل بيـــرك وماسينيون وغيرهما، ووجدت أنهم يتميزون بشيء هام خصوصًا عند حديثهم عن الحضارة الإسلامية وهي أنهم يتحدثون دومًا بموضوعية، وهذا شيء جيد ونفتقده في الكتابات العربية عن الحضارة الإسلامية وحتى عن الحضارة الفرعونية والتي تستوجب أن يكون الكاتب متحيزًا للحضارة وإلا يُتهم بأنه كافر وزنديق، على الرغم من أنه من الناحية العلمية، وعندما نتحدث عن مجالات لا تخص الدين مثل العمارة الإسلامية والطب الإسلامي وغيرهما من المجالات فلابد أن تكون النظرة موضوعية.

أماني سليمان (أخصائي بمنتدى الحوار – مكتبة الإسكندرية):

أود أن أسأل الدكتور مصطفى العبادي عن دعوة الدكتور طه حسين لتدريس اللغة اللاتينية واليونانية في كليات الآداب وجعل الدراسات الكلاسيكية منهجًا واجب الدراسة على كافة الطلاب، وكنت أريد أن أعرف إلى أين وصل الأمر بهذه الدعوة؟ هل طبقت أم لا؟ وماذا كانت حدود تطبيقها خاصة وأنني خريجة كلية الآداب وكانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها هذه المعلومة على الرغم من معرفتي باهتمام الدكتور طه حسين بهذه الدراسات وهو أول من أسس لها كرسيًّا في الجامعات المصرية، ومن هنا يأتي اهتمامي بمصير دعوته، وأريد أن أعرف ما إذا كانت حُجبت ولماذا؟ وإذا كانت طُبقت، فما هي الفترة التي طُبقت فيها؟ لأننا في كل المناهج الدراسية كنا ندرس مدخلاً بسيطًا عن الفكر اليوناني في تخصص معين، فمثلا أنا خريجة قسم الاجتماع شعبة الإعلام حيث درسنا في مادة الفلسفة المدخل اليوناني للفلسفة وفي مادة السياسة المدخل اليوناني أيضا للسياسة.

مصطفى العبادي:

بالنسبة لتساؤلات الدكتور صلاح فضل، فسأستعير كلمة الدكتور عباس يحيى أننا إذا تحدثنا عن الحضارة الفرعونية أو الحضارة الإسلامية نتحمس، إن فكرة أن التوحيد متأصل في مصر القديمة فكرة أتشكك فيها بدرجة عالية، وإن دعوة إخناتون إلى عبادة الشمس كانت حركة تمرد وارتداد عن الدين القائم، والذي استمر. ولا جدال أن تعدد الآلهة استمر في مصر القديمة، فإيزيس وأوزيريس وحربوقراط ونفتيس وغيرهم وُجدوا إلى آخر زمن الحضارة المصرية القديمة. وفي سنة ١٩٩٢، كنت أزور الهند، والهند على الرغم من أن بعض المثقفين يؤكدون على أنهم يؤمنون بالوحدانية، إلا أن ما رأيت هو أن التماثيل قائمة والأضاحي تُقدَّم والعبادات تنتشر، وفي سائر الشرق الأقصى استمرت الديانة من قديم الزمان وحتى يومنا هذا، وكنت قد ألقيت محاضرة في جامعة دلهي، وبعدها سألني طالب بعد أن خرجنا من القاعة قائلا: "ماذا حدث لآلهة مصر القديمة؟"، فهو بثقافته الهندية، لا يستطيع أن يتصور أن هذه الآلهة تختفي لأن الآلهة خالدة بطبيعتها. وعندنا نصوص تعود إلى القرن الخامس الميلادي بعد أن تسيدت المسيحية، وكان المعتقد أن للآلهة القديمة وحي، حتى أن معبد آمون في سيوة كان مشهورا بأن من يرتاده يأتيه الوحي، ولذلك ذهب الإسكندر الأكبر إلى هناك ليستطلع الوحي، وفي هذه النصوص، سجل الكهنة مشيئة إلهية بأن الآلهة قررت أن تعتزل مؤقتا أي بعد أن تسيدت المسيحية، ففكرة الوحدانية إذن ليست متسيدة في مصر على الإطلاق.

وحول مسألة الكلاسيكيات والمستقبل، أعتقد أننا سوف نغير مفهومنا لتراثنا إذا تمكنا من دراسة ليست فقط اليونانية، ولكن جميع الحضارات التي اتصلنا بها، لأننا في حاجة إلى الاستمرارية وبجدية صارمة.

حول مسألة الإسبان، أعرف أن الإسبان بدأوا يتعقلون الآن، وأصبح هناك اهتمام بالثقافة الأندلسية وبالشعر الأندلسي وبالفلسفة الأندلسية وبالآثار الأندلسية، هذا بعد وقت عصيب كان من يذكر فيه الثقافة العربية أو الإسلامية مجرد ذكر يُقتل فورًا، ونضرب المثل بذلك بمحاكم التفتيش.

وحول ما قاله العالم "كون" عن أن الأفارقة أقل ذكاءً أصبحت في الوقت الحالي خاطئة، فمن نأخذ عنهم العلم الجدي يدركون الآن أن العقل البشري ذو قدرة متكافئة ولكن المشكلة هي كيف يُعَد هذا العقل.

وحول مسألة العزلة التي نعاني منها الآن، أقول إن هذه مشكلة خطيرة كل الخطورة، لأنه في عصر القرية العالمية والاتصال المذهل، نحن نعاني من عزلة حقيقية. وهناك كتاب ألفه الدكتور فوزي منصور أستاذ الاقتصاد وهو من الأساتذة القدامى يحمل عنوان "خروج العرب من التاريخ" صدر منذ حوالي خمسة عشر عاما، وبحكم كون الكاتب اقتصاديًّا وسياسيًّا، فإنه يسلط الضوء على الأعوام الخمسين الأخيرة من سياستنا والتخبط الاقتصادي المذهل الذي عاد بنا إلى الوراء في حين تقدم عدد من الدول تقدمًا مذهلاً ونحن في غيبوبة تامة، والسبب في عزلتنا هو عزلتنا العقلية والعلمية، فالعالم يسير في طريق العلم، ونحن نتخبط لا نعرف لنا اتجاها، فبعضنا يتجه إلى الماضي ويحلم به ويظن أن الماضي من الممكن أن يعود بنا إلى مكانة عالية، ولا يدرك هؤلاء أن حركة التاريخ مثل الزمن في اتجاه واحد لا عودة أبدا، وأتساءل هل نستطيع أن نتغلب على العزلة التي فرضناها على عقولنا؟ فهذا هو ما أدعو له، وأنه لابد أن نتناول كل شيء بمنهج علمي صارم حتى نصل إلى الحقيقة وبغير الحقيقة لا معرفة.

عن الفترة المسيحية في مصر، أقول إنها كانت من أمجد فترات تجربتنا التاريخية، والإسهام المسيحي لمصر عظيم، ويكفي أن أضرب مثالاً واحدًا فقط وهو أن الرهبنة اختراع مصري وساد في العالم كله بعد ذلك. وأعلام المسيحية الأوائل من آباء الكنيسة المصرية، لذلك لابد أن ندرس هذه المرحلة جيدا، وأنا أدعو دومًا إلى ذلك، فكل مرحلة مرت بنا وكل ثقافة اتصلنا بها لابد أن نحسن التعرف عليها. وقد تفوق الغربيون على سائر البشر لأنهم درسوا العالم، وأخضعوا العالم لسلطانهم ثم درسوه أحسن دراسة، لكن لا يوجد شيء كامل، فتجربتهم بها عيوب كثيرة، وما علينا فعله هو أن نصنع علمنا بأنفسنا، فإذا أحدثنا العلم أصبحنا أصحابه. وأندهش للكثيرين الذين يدرسون التاريخ الإسلامي مستشهدين بالدراسات الغربية، وقد كان دور الغربيين هو نشر التراث، ويعد القرن التاسع عشر ثورة معرفية في التاريخ الإسلامي تمت عن طريق الغربيين، فقد اكتشفوا أثناءها الطبري مثلا، إذن، فالمعرفة والمنهج العلمي هما سبيل التقدم.

حول مسألة انتهاء التاريخ، أقول إن ما يُقال هو ترديد لموقف في التاريخ عُرف بأزمة التاريخ، وأنه لا فائدة للتاريخ، وهذه الأزمة حدثت في الخمسينيات والستينيات بقيادة فرنسا الفكرية، وفي بداية السبعينيات، حدث خلاف عليها وحدثت عودة إلى التاريخ. وحدثت أزمة التاريخ في أوروبا، فقد ظنت أوروبا أنها خير

من درس التاريخ في العالم وتاريخ البشرية، ولكن، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وجدت أوروبا نفسها تخرج من التاريخ، وتنتقل حركة التاريخ عبر المحيط الأطلسي، فأصيب المؤرخون بأزمة وتساءلوا عن قيمة دراساتهم للتاريخ إذا كانوا لا يستطيعون المحافظة على قيمة ما وصلوا إليه؟ وقد قادت حركة التاريخ الحديث جماعة Les Annales الفرنسية والتي قالت أن الخطأ ليس في التاريخ ولكن في منهجنا التاريخي. ونحن نردد فكرة المنهج، ولكننا لا ندرك قيمتها الجاذبة. وقد قيل أن دراسة التاريخ تمت على هيئة حقب وفترات وأشخاص، ومن هنا ظهرت نظرية La Longue Durée، والتي تقول إن الحركة التاريخية حركة متصلة غير متقطعة، وأن الحركات قد تمتد ألف سنة أو أكثر، وعلينا أن ندرك مسارها الذي يدركه أكثر المؤرخ الحساس، وهنا يستطيع أن يعرف اتجاه الحركة التاريخية، أما دراسة الأحداث التاريخية مجزأة ومنفصلة فسيؤدي ذلك إلى أن نعرف شيئا ونجهل أشياء أخرى، وسيؤدي ذلك إلى أن نجهل مسار الحركة التاريخية. إذن، فقد تغلب التاريخ على أزمته بتبنيه لمناهج حديثة جعلت الدارسين يلجأون إلى مناهج دراسات الإحصاء والكميات وهي في الأساس مناهج علمي الاجتماع والاقتصاد التي أصبحت تُطبق على دراسة التاريخ في كل حقبه.

وحول الكلاسيكية، أقول إنها ليست عملاً مقدسًا، ولكنها قفزة عملاقة في مراحل تاريخ الحضارة الإنسانية، وقد لعب اليونانيون دورًا محوريًّا في احتواء الثقافات السابقة، وأبدعوا شيئًا جديدًا أصبح مبهرًا، ومن جاءوا بعده كانوا يتعلمون، وقد تعلم العرب من اليونان ومن فارس ومن الهند، وتعد حضارة الهند منبعًا هائلاً بالنسبة للعالم البيروني في التراث الإسلامي، كما أن معظم الفلاسفة المسلمين من أصل فارسي. وقد أصبح الإنجاز اليوناني مرشدا بدرجة عالية، وازدادت هذه القيمة كما ذكرت في عصر النهضة عندما قرروا أن يقفزوا فترة العصور الوسطى إلى الإحياء. ومنذ ذلك الوقت، لم تصبح الحركة متصلة كلاسيكيًّا، لكنهم وقفوا – كما يقول نيوتن – فوق أكتاف القدماء وقفزوا إلى الأمام فانطلقوا. ومن المعلومات العلمية البسيطة أن أينشتاين في عام ١٩٠٨ كان يعمل في مسألة تأثير الجاذبية على انتشار الضوء، وكنا ونحن صغار نتعلم أن الضوء ينتشر في خطوط مستقيمة مثل ضوء آلات التصوير، إلا أن أينشتاين هو الذي وجد أن الأضواء في المسافات الكونية تنحني، وقد نشر في هذا العام بحثًا وعد بإتمامه في مرحلة لاحقة، وكان هذا النشر في دورية سويسرية تصدر أربع مرات سنويًّا، وفات أربع سنوات دون أن يكتب أينشتاين النصف الثاني، وفي عام ١٩١٢، كتب الجزء الثاني معتذرًا عن التأخر وموضحًا أن هذا التأخير كان نتيجة أنه واجه مشكلة مع قاعدة من قواعد إقليدس، إذن ، فهذه عقلية احتوت تاريخ الرياضيات منذ أن نشأ ثم انطلقت دون أن تردد ما سبق ولا أن تعيد ما نُشر، لكنه واجه مشكلة وتغلب عليها وانطلق بإبداعه. وهنا تكمن القيمة، فلا شيء مقدس في ذلك، ولكن عناصر قوة. وأعتقد أن مستقبل دراسة تاريخ مصر يتوقف على دراستنا العلمية للوثائق البردية.

وحول مسألة الحماس للحضارة الإسلامية، سمعت ذات مرة تعليقًا يقول "لماذا في كل مرة نتحدث فيها عن الحضارة الإسلامية يظهر الأمر وكأننا نؤبن ميتًا؟ اذكروا محاسن موتاكم!"، وكانت هذه عبارة لطيفة لأنها تجسد الموقف الضعيف الذي نريد أن نتغلب عليه بدراسته دراسة علمية موضوعية.

وحول دعوة الدكتور طه حسين، كانت في أيامها جديدة ومفاجئة و لم يستوعبها الرأي العام، وواجهته مشكلات إدارية، وبوصفه كان المدير الأول للجامعة المصرية فقد كان مهتمًّا للغاية بإنشاء قسم للكلاسيكيات بها، ولعدم وجود أساتذة في هذا الوقت تعرف اليونانية أو اللاتينية، فقد بدأ إرسال البعثات حتى يتعلم من أصبحوا بعد ذلك أساتذة أمثال علي حافظ وزكي علي وإبراهيم نصحي وفاطمة سالم والسلاموني، والآن هناك أقسام وأساتذة متخصصون في هذا المجال في معظم جامعات مصر حتى في جامعات سوهاج وأسيوط والمنيا والفيوم والمنوفية، لكن معظم هؤلاء الأساتذة مشغولون أكثر بلقمة العيش.

صلاح فضل:

نشكر الأستاذ الدكتور مصطفى العبادي على محاضرته الثرية والقيمة.